الفصل الرابع عشر

نظرة عامة

الحكومة — الإيرادات — الإدارة — الخدمة العسكرية — إصلاح العملة فى خلافة عبد الملك — دمشق — الحياة فى البلاط — الحياة الاجتماعية — مركز المرأة — نظام الحريم — الملابس — العادات — الأديبات — الفرق الدينية والفلسفية

الحكومة
٤٠ — ١٣٢هـ
٦٦١ — ٧٥٠م

كان الخليفة فى أيام الجمهورية ينتخب من قبل أهل المدينة بالإجماع دون أن يعترض العرب فى الخارج على هذا الانتخاب ، كما كانت مراسم البيعة تقام فى المسجد الجامع ، حيث كان المسلمون يجتمعون فى حشد حافل ليبايعوا الخليفة ويعاهدوه على الطاعة والولاء . ولكن الخلفاء منذ أن اعتلى معاوية كرسى الخلافة طفقوا يعينون أولياء عهودهم الذين كان الأشراف ورجال الدولة وقادة الجيش يحلفون لهم يمين الطاعة فى احتفال رائع يحضره الخليفة نفسه ؛ كذلك كان الأمراء والولاة يأخذون البيعة فى أهل الأمصار التى يحكمونها — للأمير الذى كان الخليفة يرشحه لولاية العهد .

وهكذا أصبح هذا النظام ، نظام البيعة بولاية العهد ، يجمع بين مساوئ الديمقراطية والأوتوقراطية دون أن يستفيد من مزايا إحداهما . أما موافقة الشعب فكانت تغتصب اغتصابا ، سواء بطريق القوة أو التملق أو الرشوة ؛ ولكنها كانت بعد إجراء المراسم المعتادة تصبغ الانتخاب بالصبغة الشرعية .

وكانت الخزينة العامة [1] فى خلافة أبى بكر وعمر وعلى تعتبر ملكا للشعب وكان كل فرد من أفراد الإمبراطورية الإسلامية ينال مرتباً معيناً من خزينة

---

(١) وتسمى بيت مال المسلمين .

الدولة التى أصبحت منـذ قيام الحـكومة الأوتوقراطية فى عهد معاوية ملكا خاصاً للخليفة . ولهذا نجد « معاوية » يولى « عمرو بن العاص » مصر ويهبـه خراجها مكافأة له على حسن بلائه فى الخلاف الذى نشب بينه و بين الإمام على .

الإيرادات

أما الإيرادات فى العصر الأموى فكانت تجبى من نفس المصادر التى كانت تجبى منها فى زمن الجمهورية وهى :

(١) الخراج .

(٢) ضريبة الأعناق .

(٣) الزكاة .

(٤) الجمارك والمكوس .

(٥) الجزية .

(٦) الأخماس (خمس الفىء) .

ولما كان المبدأ السائد وقتئذ هو اللامركزية ، فكانت كل ولاية تصرف إيراداتها على مرافقها الخاصة ، كدفع رواتب الأجناد وأرباب المعاشات و إنشاء الطرق وحفر الجداول وتشييد المؤسسات العامة كالجوامع والمدارس ، ثم ترسل ما يتبقى بعـد ذلك إلى الخزينة العامة . وكانت الجباية تعتبر ضمن واجبات العمال الذين كانوا على ما يظهر يجمعون بينها و بين وظيفتهم الأصلية . أما الولاة فكانوا إذ ما جمعوا بين وظيفتهم الأصلية و بين وظيفة صاحب الخراج ، وخاصة بعد خلافة « عمر الثانى » ، يدعون مهمة التحصيل إلى كتابهم الذين كانوا بطبيعة الحال يجنحون إلى ابتزاز أموال الرعية ، ويعرضون أنفسهم للعقاب ولتصفية أملاكهم ، كذلك كان الخلفاء وأفراد الأسرة المالـكة يخصون أنفسهم بالضياع الشاسعة . وكان الناس إلى خلافه « الوليد الثانى » يبذلون قصارى جهودهم فى ترقية الزراعة واستثمارها . ولـكن حدث فى خلال الحروب الداخليـة — التى سبقت ارتقاء « عبد الملك » كرسى الخلافة — أن أهملت جميع أعمال الرى

العظيمة وطمست معالمها ؛ كما استحالت المزارع الخضراء إلى أرض بلقع ومستنقعات آسنة . ويقال إن « مسلمة » أخا هشام كان قد استصلح معظم أرض السواد (وادى الفرات الأسفل) وجعلها تنبض بالقوة والحياة .

أما الضرائب فلم تكن فى جميع أنحاء الإمبراطورية وفق مقياس واحد بل كانت تختلف باختلاف الظروف والامتيازات التى كانت تمنح فيها ؛ كذلك كانت تجرى من حين لآخر بعض المحاولات لنقض تلك العهود ، ولكنها كانت فى أغلب الأحيان تنتهى بنشوب الفتن وشق عصا الطاعة .

الإمارات

كانت الإمبراطورية مقسمة إلى خمس إمارات كبرى يحكم كل واحدة منها أمير مرتبط رأساً بالخليفة وهى :

(١) الحجاز واليمن وأواسط جزيرة العرب .

(٢) مصر العليا والسفلى .

(٣) العراقان : عراق العرب (بابل القديمة وكلدة) وعراق العجم ، وعمان والبحرين وكرمان وسوستان وكابول وخراسان ، وسائر أنحاء ماوراء النهر والسند ، وبعض أقسام البنجاب . وقد كانت جميعها تؤلف إمارة شاسعة الأطراف ، ويحكمها أمير العراق وحاضرته الكوفة وتتبعها :

ا — خراسان وحاضرتها مرو .

ب — عمان والبحرين ، ويحكمها عامل تحت إشراف والى البصرة .

(٤) الجزيرة وأرمنيا وأذربيجان ، وبعض أقسام آسيا الصغرى .

(٥) إمارة أفريقيا : وهى أهم الإمارات على وجه الإطلاق ، وتشتمل على شمالى أفريقيا حتى حدود مصر الغربية وأسبانيا وجنوبى فرنسا مع جزائر صقلية وسردينيا وجزائر البلاريك ، وحاضرتها القيروان ويتبعها :

ا — جزائر البحر الأبيض المتوسط .

ب — الأندلس وحاضرتها قرطبة .

وكان الوالى أو الأمير هو المهيمن على الإدارة سواء أكانت عسكرية أم سياسية ، إلا أن أعمال الجباية كانت تناط فى معظم الأوقات بموظف يطلق عليه اسم « صاحب الخراج » ، الذى كان يقوم بمهام وظيفته مستقلا استقلالا مطلقاً عن الأمير ، كما كان يجرى تعيينه رأساً من قبل الخليفة ؛ أما قضاة المدن فكانوا يتمتعون بحق تعيين وكلائهم ، فى حين كانت مشاكل الطوائف غير الإسلامية يفصل فيها حكام من طوائفهم أو رؤساؤهم الدينيون . ولا بد أن نشير هنا إلى أن إمامة الصلاة — وهى من أهم الوظائف على وجه الإطلاق — كان يقوم بها الأمير أو القاضى الأكبر بالنيابة عن الخليفة .

وكان رئيس الشرطة أو « صاحب الشرطة » — كما كان يسمى فى ذلك الحين — يقوم بمهام وظيفته تحت إشراف الأمير أو الوالى . ويقال إنه فى أوائل عهد «هشام» تألفت قوة جديدة سميت بالأحداث ، وهى أشبه فى الوقت الحاضر بفرقة المليشيا أو « الرديف » وتعتبر خطوة وسطى بين الشرطة والجندية .

ديوان الخاتم

ومما يؤثر عن « معاوية » أنه شكل دائرة تسمى « بديوان الخاتم » للقضاء على أعمال التزوير من جهة ، وتسهيلا للمكاتبات بين الخليفة وبين عماله فى سائر أنحاء الإمبراطورية من الجهة الأخرى ، وبذلك أصبحت الأوامر والرسائل لا تصدر عن بلاط الخليفة إلا بعد أن تسجل النسخة الأصلية فى سجل خاص وتختم بخاتم الخليفة نفسه ؛ كذلك يقال إنه أسس نظاماً بريديا بلغ فى العهد العباسى درجة عالية من الرقى والكمال . ولا يفوتنا أن نذكر بهذا الشأن أن سياسة الأمويين فى المشرق لم تصطبغ بصبغتها النهائية إلا فى عهد « عبد الملك » الذى وجهها الاتجاه الذى عرفت به فيما بعد ، فنهى عن استخدام غير العرب فى الوظائف الرسمية بنية إنقاذ الدولة من النفوذ الأجنبى ، غير أن الحجاج المشهور راح يتوسع فى تنفيذ تلك الأوامر إلى أبعد مدى فى العراق ، حتى إنه لم يكتف بإقصاء الذميين عن الخدمة العامة فحسب ، بل راح يقصى أيضاً المسلمين غير

العرب عن وظائف الدولة ، وقد أدت به هذه المغالاة إلى أن يفرض ضريبة الأعناق على أولئك الذين اعتنقوا الإسلام حديثاً فى ذلك الوقت ، غير أن تلك السياسة المتطرفة فشلت فى الواقع فشلا تاما ، إذ لم ينقض طويل وقت حتى أعيد استخدام عدد كبير من الفرس والنصارى فى مناصب الدولة الصغرى ، ولكن هذه السياسة مع ذلك لم تمر دون أن تترك أسوأ الأثر فى عهد «مروان الثانى» .

النقد

أنشأ «عبد الملك» نظامين مهمين أملتهما عليه سياسة الحكمة وبعد النظر ، فالمعروف أنه لم يكن فى البلاد الإسلامية إلى ذلك الحين نقد معترف به فى جميع أنحاء الإمبراطورية ، بل كان لأمراء الولايات مضارب خاصة يسكون فيها العملة حسب احتياجاتهم ، ولهذا كانت قِيَم النقد غير مستقرة البتة ، الأمر الذى كان يشجع على التزييف والتلاعب . ومع أن العملة البيزنطية والفارسية كانتا متداولتين بجانب العملة المحلية ، إلا أن توسع أطراف الإمبراطورية وتقدم التجارة أديا إلى وضع أساس ثابت للنقد ، فأنشأ «عبد الملك» داراً جديدة للمسكوكات ، كما أمر بسحب النقد المتداول على أنواعه من الأسواق والاستعاضة عنه بنقد جديد من الذهب . ويقال إنه اعتمد فى إصلاحه هذا على مزيج من الفئات الرومانية والساسانية ، جاعلا الصلدى الرومانى أساساً للعملة الذهبية ، والدرهم — الذى أوجده عمر بن الخطاب — أساساً للعملة الفضية ، كذلك جعل التزييف جريمة يعاقب عليها عقاباً صارماً .

استعمال اللغة العربية فى دوائر الحكومة

أما الإصلاح الثانى الذى أدخله فى الدوائر الحكومية فلم يكن ليقل شأناً عن الإصلاح الأول ، إذ كانت حسابات الدولة قبل عهده تمسك بالفارسية أو اليونانية أو السريانية ، الأمر الذى كان يغرى صغار الموظفين بارتكاب أعمال التزوير والتلاعب فى السجلات ، ولهذا أمر بنقلها إلى اللغة العربية . كذلك كانت جميع وظائف الدولة قبل أن يعتلى «يزيد الثانى» عرش الخلافة لا تسند إلا لأولئك الذين اشتهروا بالمرونة السياسية والحنكة الإدارية ، أو الذين أدوا

خدمات جليلة لمقام الخليفة أو لأسرته . ولكن المحسوبية لم تلبث أن تغلغلت فى جسم الدولة فى أيام « يزيد الثانى » حتى غدت عاملا أساسياً للترشيح دون أخذ الأهلية بنظر الاعتبار ، ويقال إن هشاماً نفسه لم ينج من تلك المؤثرات ؛ كما ظهرت فى ذلك الحين بادرة أخرى نجم عنها أسوأ النتائج ، وهى أن الموظفين — الذين كانت أعمالهم الرسمية تتطلب الإقامة فى الحواضر — راحوا يهجرون مراكز أعمالهم وينزحون إلى العاصمة للتمتع بمباهج المدنية ومسراتها ، تاركين زمام الحكم وتسيير دفة الأمور إلى وكلائهم الذين اتخذوا تلك الفرصة سبيلا لابتزاز أموال الدولة والجنوح إلى الرشوة والاختلاس .

وعلى الجملة كانت الإدارة الحكومية فى العصر الأموى ذات صبغة بدائية فلم تكن قد عرفت بعد تلك القوانين الذى وضعت فى العهد العباسى ، كذلك لم تكن قد فصلت الواجبات بدرجة تساعد على رفع مستوى الكفاية ؛ وفيما يلى نورد أسماء الدوائر التى كانت تضطلع بمهام الإدارة وهى :

٤٠ — ١٣٢هـ (١) ديوان الخراج ويشبه وزارة المالية فى العصر الحاضر .

(٢) « الخاتم وهو الديوان الذى كان يقوم بوضع أنظمة الدولة ، وكانت الرسائل تختم فيه بخاتم الخليفة .

(٣) ديوان الرسائل وهو الديوان الذى كان يهيمن على شؤون الولايات ، وتصدر عنه الرسائل إلى الأمراء والعمال .

(٤) ديوان المستغلات[1] أو مجلس الإيرادات المتفرقة .

أما الخدمة العسكرية فكانت إجبارية على جميع العرب الذين كانوا ملزمين بالانضواء تحت لواء الجيش فى أوقات معينة من السنة ؛ وكان الجندى وهو فى ميدان القتال يتناول مرتباً أكثر مما كان يتناوله عادة وهو فى الاحتياط ،

---

(١) يقول ابن حوقل : « يراد بالمستغلات ما يجبى لبيت المال من أسواق أو منازل أو طواحين ابتناها الناس فى أرض السلطان فيؤدى عنه أجرة . (المعرب)

ولكن الأرزاق كانت تصرف له تامة غير منقوصة طوال أيام السنة ؛ وسنوفى هـذا الموضوع حقه من البحث عند الكلام عن العباسيين حين يكون نظام الدولة قد بلغ درجة عالية من الكمال . وقبل أن نختم هذا البحث لا يفوتنا أن نشير إلى أن رئيس الأسطول البحرى كان يطلق عليه اسم « أمير البحر » .

المدن

كان العرب يشيدون الأسوار حول المدن لصد هجمات الأعداء ، كما كانوا يخصصون لكل صناعة بضعة شوارع على حدة تسمى بأسمائها ؛ وحقيق بنا أن نذكر أن تقسيم المدن إلى أحياء لم يجر على أساس الحرف ، إذ كان العرب يمقتون المركزية مقتاً شديداً ، ولهذا كانوا يتجمعون أينما حلوا حسب تقسيمهم القبلى ، فكان لكل عشيرة حى خاص يضم منازلها وجوامعها وأسواقها ومقابرها ولا يخفى أنه كان لهذا التجمع مساوئ عديدة ، أهمها أنه كان يساعدهم على التمرد والعصيان . ولما كانت تلك الأحياء تقوم مقام المدن الصغرى ، فقد أمرت ٦٦١ — ٧٥٠ الحكومة أن يفصل بعضها عن البعض الآخر بأبواب متينة يقوم على حراستها جنود أشداء لمراقبة الرائحين والغادين ، ولا سيما فى الهزيع الأخير من الليل ، ويقفلونها عند نشوب الفتن الداخلية فتنقطع بقفلها المواصلات بين أحياء المدينة .

دمشق

كانت دمشق قبل أن يحتلها المسلمون مدينة زاهرة عامرة ومقرا للحاكم الرومانى ، كما أصبحت فى العصر الأموى حاضرة الإمبراطورية الإسلامية ومن أجمل مدن العالم على وجه الإطلاق ، فجملت بالعمائر الفخمة والقوارات البديعة ، والملاهى الفاتنة ؛ وكان أول ما شيده فيها الأمويون هو القصر المعروف بالخضراء الذى استمد اسمه من لون زخرفته ونقوشه . ومما هو جدير بالذكر أن أخلاف معاوية ابتنوا فيها الحصون المنيعة ، والقلاع ذات القبب البيضاء ، والقصور المنيفة الذرى ، والجوامع الفخمة ؛ والمأثور أن « الوليد » جملها هى وضواحيها بالعمائر الفخمة والمنشآت النفيسة ، وابتنى فيها جامعاً سيخلد اسمه على كر الدهور ومر العصور ، وهو الجامع الأموى المعروف .

الموصل

بيد أن الشغف بالبناء لم يقتصر على الخلفاء وحدهم ، بل شمل أيضاً أفراد الأسرة المالكة وكبار رجال الدولة الذين أخذوا يتنافسون فى تجميل عاصمة الخلافة وحواضر الأمصار .

ويقال إن الحر[١] الذى حكم مدينة الموصل[٢] إحدى عشرة سنة فى عهد هشام أسس فيها مدرسة وقصراً[٣] منيف الذرا أبدى الفنانون فى بنائه كل مهارة و إبداع ، فشيدوه بالرخام الأبيض المصقول كما زخرفوه بالحجارة المنقوشة بالألوان ، وركزوا سقوفه على دعامات وأكتاف من الخشب الهندى المموه بماء الذهب ، ولهذا سمى بالمنقوشة . والمأثور أنه لما بلغه ما يعانيه أهل الموصل من المشاق فى الحصول على مياه الشرب أمر بشق جدول لا يزال أثره باقياً حتى اليوم بالرغم من تقادم العهد ومضى مئات السنين ؛ كذلك غرس الأشجار الوارفة على جانبى الطريق بحذاء ذلك الجدول لكى يسير فيه سكان المدينة فى الأماسى ترويحاً للنفس واستنشاقاً للهواء العليل .

مياه الشرب فى مدينة دمشق

أما نظام مياه الشرب فى الشام فقد فاق أمثاله فى الشرق ، بحيث أصبح أثراً خالداً يشيد بذكر الخلفاء الأمويين على مدى العصور وكر الدهور ، ومع أن نهر بردى كان يجهز المدينة ولا شك بالمياه الكافية ، إلا أن الأمويين أبدوا مهارة منقطعة النظير فى تجهيز حتى أحقر دور المدينة بأحواض خاصة تنبثق منها المياه الصافية ؛ كما حفروا سبعة جداول رئيسية تنساب فى أنحاء المدينة علاوة على المجارى العديدة الأخرى التى كانت تربط كل منزل بالمجرى الرئيسى .

قصر الخلافة

وكان قصر الخلافة مزخرفاً بالذهب الوهاج والمرمر الناصع ، تكتنفه من

---

(١) إن أبا الحر هو يوسف حفيد الحكم من الأسرة الأموية .

(٢) توفى فيها أبو تمام حبيب الطائى ، ومنها ابن جنى الموصلى وأبو إسماعيل الطفرائى وابن الطقطقى وبهاء الدين بن شداد ، وأبناء الأثير الثلاثة ، والشاعر السرى الرفاء . (المعرب)

(٣) يقول ابن الأثير : يقع هذا القصر بالقرب من سوق السروجية وهو فى حالة مهملة وقد تداعى معظمه .

كل صوب الحدائق الوارفة الظلال ، التى تغرد على أشجارها الأطيار الجميلة بأصواتها الشجية ؛ كذلك كانت أرض القصر مزخرفة بالفسيفساء ، كما كانت الغرف مطلية بماء الذهب ومرصعة بالجواهر الثمينة . وكان من المألوف أن يشاهد المرء عبيد القصر يغدون ويروحون فى الأبهاء وقد ارتدوا أفخر الحلل بأبهى الألوان . وكانت الحفلات الخاصة فى عهد هشام تقام فى البهو الفسيح المبلط بالمرمر المشدود بالأسلاك الذهبية ، والمفروش بالطنافس الحمراء الموشاة بالذهب . وكان الخليفة يحضر بنفسه تلك المآدب الحافلة متشحاً بالملابس الحريرية الحمراء ومتضمخاً بالمسك والعنبر . ٦٦١ — ٧٥٠

طراز البناء

وكان لمدينة دمشق ستة أبواب[1] شاهقة ترى من بعيد . وعند ما غزا العرب بلاد الشام لم يكونوا قد أوجدوا بعد طرازاً معمارياً خاصاً بهم ، ولكنهم سرعان ما أنشأوا نمطاً على جانب عظيم من الروعة والجمال بزوا فيه كلا الطرازين الفارسى والبيزنطى . ومما لا شك فيه أن الطراز المعمارى لأى شعب من الشعوب يستمد ميزاته من خصائص الوطن الأصلى لذلك الشعب وأحوال معيشته البدائية ولهذا نلاحظ فى رسوم الأقواس والأعمدة والمنائر والقباب المستعملة فى الفن المعمارى العربى تشابهاً قوياً مع تقوس وتقبب أحواش النخيل المحببة إلى قلوب العرب . وقد كانت منازل أهل الشام تشيد فى مبدأ الأمر على الطراز الرومانى فى حين كانت البيوت العراقية مطبوعة بطابع الطراز الفارسى ، وبرغم مضى الزمن لم يحدث أى تأثير يذكر على نمط البناء ولا على تقسيم المنازل ، فكانت توجد أمام كل باب من بيوت الأثرياء دكة حجرية أو خشبية يجلس عليها البواب ، وكان يستعاض عن هذا النظام فى منازل الفقراء بحلقة معدنية أو حديدية تعلق على الباب لكى يدقها الطارق . وكان الدهليز يؤدى إلى صحن مستطيل تحيط به أبهاء ذات أعمدة تكتنفها أرصفة من الحجر أو المرمر أو الحصباء منضدة على

(١) باب الفردوس ، باب الجابية ، باب الشرقية ، باب توما ، باب الصغير ، باب قيسان .

شكل هندسى رائع . وكانت الفوارات تتوسط الحديقة ذات الخمائل المتشابكة والورود الزاهرة ، وكان أحد جانبى البهو يطل على صالة مبلطة بالمرمر أو الحجارة الملونة ، وتستعمل فى الصيف كثوى للأضياف . أما منازل الأغنياء فكانت تتألف أحياناً من طابقين كما كانت تشتمل على أبهاء عديدة عن يمينها وشمالها أبواب عدة ذات ستائر كثيفة تفتح على ثوى الأضياف وغرف السكنى . وكان الإيوان وسائر الغرف تفرش فى الشتاء بالطنافس الفاخرة ، وفى الصيف بالحصر الغالية ، كذلك كانت تدور حذو الحيطان رفوف مصفوف عليها أثمن التحف وأجملها ، أما السقوف فكانت مزخرفة بالنقوش العربية المطلية بماء الذهب . وفى الشتاء كانت المواقد تستعمل لتدفئة الغرف ، فى حين كانت الفوارات والنوافذ تساعد على تلطيف حرارة الجو فى فصل الصيف .

حياة البلاط

وكان أمير المؤمنين — على ما جرت به العادة — يؤم المصلين يوم الجمعة وسائر أيام الأسبوع . والمأثور أن معاوية ، وعبد الملك ، وعمر الثانى كانوا يواظبون على أداء هذا الواجب بانتظام تام ، غير أن الخلفاء الآخرين وإن لم يحضروا الصلاة اليومية كانوا يكتفون بحضور صلاة الجمعة فى المسجد الجامع لإلقاء الخطبة . وكانوا فى تلك المناسبة يتشحون بملابس بيضاء ويتعممون بعمامة بيضاء أيضا منضدة بالجواهر الثمينة ، ولم يكن ثمة شعار لهذا المنصب الخطير سوى خاتم النبى (ص) والقضيب[١] . وكان الخليفة بعد الصلاة[٢] يرتقى المنبر لإلقاء خطبة الجمعة ، ولكن « يزيداً » كثيراً ما أناب عنه صاحب الشرطة فى إلقاء الخطبة وإمامة المصلين . وكان الخلفاء يفصلون فى القضايا الخطيرة التى

---

(١) كان الخليفة يرتدى حين صلاة الجمعة أو أيام الأعياد الرسمية « البردة » وهى ثوب كان يلبسها الرسول . وقال ابن الأثير : « شملة مخططة وقيل كساء أسود مربع فيه صفر » . (المعرب)

(٢) الخطبة فى الجمعة قبل الصلاة لا بعدها إلا فى صلاة العيدين . (المعرب)

هى من اختصاص حاكم التميز فى العصر الحاضر ، ويستقبلون أشراف الدولة والسفراء .

وكانت حفلات الاستقبال على نوعين : عامة وخاصة ، ففى العامة كان الخليفة يجلس على العرش فى صدر قاعة الاستقبال ، بينما كان يقف عن يمينه أمراء الأسرة المالكة ، وعن يساره كبار الموظفين ورجال الدولة ، وأمامه أعيان الأمة ووجهاؤها وممثلوها الذين كان يسمح لهم بالدخول والسلام عليه ، ومن جملتهم رؤساء الحرف والشعراء والفقهاء ومن إليهم ، أما الحفلات الخاصة فكانت تقتصر على أفراد البيت المالك وكبار موظفى الدولة والبطانة الذين أصبحوا بحكم العادة من غير أفراد الأسرة المالكة . وفى مثل تلك المناسبات كان الخلفاء يتأنقون فى ملابسهم جد التأنق ؛ وقد قيل إن الوليد الثانى كان يتشح بالأثواب الحريرية المشجرة والموشاة بالقصب والسراويل المصنوعة من الحرير والدمقس .

وكان الخلفاء الأمويون الأولون يزجون معظم أوقات الفراغ بالاستماع إلى اخبار الحروب وقصص الأبطال وأعمال الفروسية والبطولة فى زمن الجاهلية وصدر الإسلام . وكان الشعراء يفدون عليهم لينشدوا بين أيديهم القصائد التى كانوا يسبحون فيها بحمدهم ويتغنون بكرمهم . أما الخمر فلم يدخل القصور الملكية إلا فى عهد يزيد الأول الذى كان يتجاوز فى شربه حد الاعتدال ، والمعروف أن مجالسه كمجالس يزيد الثانى والوليد الثانى مجالس معاقرة أكثر منها مجالس أنس وطرب . كذلك لم يطل الزمن حتى أدخلت الموسيقى والغناء فى مجالسهم الخاصة ، وأصبح أشهر المغنيين والموسيقيين يفدون على دمشق من مكة والمدينة وطنى الفن والموسيقى وقتئذ . ولم تكن لعبتا النرد والشطرنج منتشرتين بعد ، غير أن الأولى كانت هى ولعبة الورق غير مجهولتين فى قصور الخلفاء والأمراء .

الخمر

ويقال إن هشاماً كان أول من أسس حلبة السباق لتحسين نسل الجياد ، وكان من المألوف أن يتسابق فى تلك الحلبة زهاء الأربعة آلاف من الجياد

حلبة سباق الخيل

الصافنات التى كان بعضها يجلب من الاصطبلات الملكية والبعض الآخر من اصطبلات الأعيان والأمراء مما لم يسبق له مثيل قط .

الموسيقى

وتقول لنا الرواية العربية إن حب الموسيقى بدأ فى عهد « الوليد الثانى » يتطور إلى شغف مفرط ، وأضحت الأموال الطائلة تنفق من غير حساب على مشاهير المغنيين والموسيقيين الذين كان يؤتى بهم إلى البلاط من أقصى أنحاء الإمبراطورية ، فنجم عن توافد الطبقات الحقيرة إلى العاصمة لمباشرة حرفتى الرقص والغناء انحطاط الحياة الاجتماعية وإقصاء الحرائر بالتدريج .

ويقول مؤرخ مشهور [١] : « إن نظام الحريم لم يعمل به قبل خلافة « الوليد الثانى » الذى أدخل فى قصره نظام الخصيان تشبهاً بالبيزنطيين ، وقد أخذت تلك المخلوقات المنكودة الحظ منذ ذلك الحين تلعب دوراً خطيراً فى بلاط الحكام الشرقيين بصفة كونهم خداما أمناء ، وحراساً مخلصين على شرف الحريم » . وكان اقتناء الخصيان عادة شائعة عند اليونان ، بيد أن الجاحظ [٢] أشهر أدباء ذلك العصر وأحد رجال المعتزلة فى القرن الثالث الهجرى ، حمل على تلك العادة حملة شعواء بأسلوبه اللاذع ، ولكنها كانت مع ذلك قد تأصلت فى البلاط الأموى برغم سخط فقهاء المسلمين واستنكارهم .

اقتباس العوائد

كما أخذ الأمويون عن البلاط البيزنطى تلك العادة السيئة عادة اقتناء الخصيان لاستخدامهم على الأخص فى القصور ، كذلك اقتبسوا بعض العادات الاجتماعية التى كانت شائعة فى ذلك الحين بين الفرس ، ومنها شرب الخمر الذى

---

(١) فون كرامر .

(٢) هو أبو عثمان عمرو الكنانى الليثى المعروف بالجاحظ البصرى صاحب التصانيف فى كل فن ، وإليه تنسب الفرقة المعروفة بالجاحظية من المعتزلة ، وكان تلميذ أبى إسحق إبراهيم ابن سيار البلخى ، ومن أحسن تصانيفه وأجمعها كتاب الحيوان فلقد جمع فيه كل غريبة ، وكذلك كتاب البيان والتبيين ، وكانت وفاة الجاحظ سنة خمس وخمسين ومئتين بالبصرة ، وقد نيف على ٩٠ سنة (ابن خلكان ج ٢ ص ١٠٨) . (المعرب)

عم استعماله فيما بعد ، كما أخذت النساء يستطبن احتساء نوع من الشراب المبرد بالثلج ؛ ولا ننسى أنه لا يزال يباع إلى اليوم فى أسواق دمشق و بيروت باسم « الجلاب » . ويقول لنا المؤرخون : إن نساء الأسرة المالكة أولعن بهذا الشراب ولعاً شديداً ، ورحن يتساقينه فى كؤوس من الذهب والبلور ، وقد اشتهرت أم حليم « زوج هشام » خاصة بشغفها بهذا الشراب .

أما يزيد الأول ثانى الخلفاء الأمويين فكان يعاقر الخمر كل يوم كأنه يقلد بذلك بعض ملوك الفرس القدماء ، ولهذا لم يكن ليرى فى صحوه إلا قليلا ، كذلك كان « عبد الملك » يحتسيها بإفراط مدهش مرة فى الشهر ، غير أنه كان يتداوى بجرعة منها فى صباح اليوم التالى كما كان يفعل ملوك الرومان لكى تذهب عنه خمارها ودوارها .

أما الوليد الأول فكان يعاقرها مرة كل يومين فى حين كان أخوه يزيد الثانى وابن أخيه الوليد الثانى يحتسيانها على الدوام . وثمة ثلاثة [١] من الخلفاء الأمويين لم يشربوا الخمر قط وهم : عمر الثانى ، وهشام ، ويزيد الثالث . أما مجالس الشراب فى قصر الخلافة وفى قصور العظماء فكانت تصحبها الموسيقى والغناء فيزيدان فى روعتها و بهجتها . كذلك جرت العادة فى تلك الليالى أن يضرب ستار شفاف فى وسط البهو لإخفاء شخص الخليفة والجلساء الذين كانوا يشاربونه عن أعين المغنيين والموسيقيين وسائر الندماء .

النساء

ذكرنا فيما سبق أن عادة عزل النساء التى كانت شائعة عند الفرس من أقدم الأزمنة أخذت تتفشى بين الطبقات الإسلامية فى عهد « الوليد الثانى » وذلك أن أخلاقه وطباعه شجعتا على انتشار تلك العادة ، كما أعان الاعتزاز بالكرامة والتمسك بالتقليد على نقلها إلى تربة الشام المتجانسة ، ونستطيع أن نقول إن استهتار هذا الخليفة بالتقاليد الاجتماعية حدا بالناس إلى الاحتياط من

(١) كذلك معاوية لم يشرب الخمر قط . (المعرب)

الاعتداء الخارجي ، ومثل هذه العادة إذا ما سرت بين الناس تطورت إلى تقليد مقدس ، واعتقد الجمهور بأن الأسوار والحراس أضمن لحماية الحرائر من تحليهن بنبل العاطفة وصفاء الفؤاد . ولكن المرأة برغم تلك الظروف القاسية التى أحاطت بمركزها بقيت حتى خلافة « المتوكل » عاشر الخلفاء العباسيين تتمتع بقسط وافر من الحرية ؛ إذ لم يكن الوهن البيزنطى ولا الترف الفارسى قد قضيا بعد على سذاجة ابن الصحراء وحريته ، ولهذا كان الآباء يلقبون فى مواقف التبجيل بأسماء بناتهم الجميلات[١] ، ويفتخرون بذلك أيما افتخار ، كما كان الرجال يخوضون غمار الحروب وهم يهتفون بأسماء أخواتهم أو حبائبهم ؛ وكانت الفتيات المثقفات يجالسن الرجال دون أن يظهر عليهن أى ارتباك أو إحساس غير شريف[٢] ، كذلك كن يستقبلن الأضياف دون أدنى خجل أو وجل . وعلى الجملة كن يعرفن قيمة أنفسهن ، ولهذا كان المجتمع يقدرهن حق قدرهن . وإنا لنجد الأدب العربى زاخراً بأخبار مثل هؤلاء النساء ، ومصداقاً لذلك نسوق الأمثلة التالية . قال كاتب[٣] مشهور : إنى حججت فلما صدرت عن الحج تيممت منهلا من المناهل وإذا ببيت فى ناحية من الطريق فأنخت بفنائه . فقلت : أأنزل ؟ فقالت ربة البيت : نعم . فقلت : وأدخل ؟ فقالت : أجل . فدخلت فإذا جارية أحسن من الشمس ، فجلست أحدثها وكأن الدر ينثر من فيها ، فبينا أنا كذلك إذ خرجت عجوز مؤتزرة بعباءة ، مشتملة بأخرى ، فقالت : يا عبد الله ! ما جلوسك ههنا عند هذا الغزال النجدى ، الذى لا تأمن جماله ، ولا ترجو نواله ؟ فقالت لها الجارية : « أى جدة ! دعيه يتعلل »[٤] .

الخرقاء

---

(١) كأبى سلمى وأبى ليلى الخ .

(٢) وكأن الشريف الرضى عنى هذه الحال بقوله :

عفاق من دونك التقية زاجر وصوتك من دون الرقيب رقيب

(المعرب)

(٣) هو محمد بن جعفر بن سهل الخرائطى فى كتاب اعتلال القلوب عن محمد بن سلمى الضبى .

(٤) ابن خلكان ص١٤١ ج ٢ .

الخرقاء

وقال « العينى » فى معرض الكلام عن النساء : « كنت أنزل على بعض العرب إذا حججت . فقال لى : هل لك إلى أن أريك خرقاء صاحبة ذى الرمة فقلت : إن فعلت فقد برزت ؛ فتوجهنا جميعاً نريدها ، فعدل بى عن الطريق قدر ميل ، ثم أتينا أبيات شعر فاستفتح بيتاً فتح له ، وخرجت امرأة طويلة حسنة بها قوة فسلمت وجلست فتحادثنا ساعة ، ثم قالت لى : هل حججت قط ؟ قلت : لا ، غير مرة . قالت : فما منعك من زيارتى ؟ أما علمت أنى منسك من مناسك الحج . قلت : وكيف ذاك ؟ قالت : أما سمعت قول ذى الرمة :

تمام الحج أن تقف المطايا على خرقاء واضعة اللثام ؟ »

الست سكينة

كذلك ذاع فى أوائل العهد الأموى اسم السيدة « سكينة » بنت الحسين شهيد كربلاء ؛ وكانت سيدة نساء عصرها ومن أجل النساء وأظرفهن وأحسنهن أخلاقاً ، وكان منزلها بمثابة ندوة يقصدها الشعراء والفقهاء والعلماء والفضلاء على مختلف طبقاتهم ، وكانت تلك المجتمعات تتألق وتزدهر خاصة بتعليقاتها السديدة ومأثور كلامها الفياض . وكانت أم البنين زوج الوليد الأول وأخت « عمر الثانى » تعد من أشهر نساء عصرها ، وكان لها على زوجها نفوذ لا يقاوم استعملته لخير الشعب ورفاهيته ، والنصيحة التى ألقتها على « الحجاج » مشهورة فى التاريخ ؛ إذ يقال إنه وفد ذات مرة على الوليد وأشار عليه بالتخلص من نفوذها ، فلما بلغها نصحه طلبت إلى الخليفة أن يوعز إليه بالتسليم عليها ؛ ولما مضى الحجاج إلى جناحها الخاص أهملت شأنه طويلا ثم أذنت له بعد أن كاد ييأس من المثول بين يديها ، وسألته عن النصح الذى أسداه إلى الخليفة ، فلما أراد أن يتملص من الجواب ألقت عليه درساً بليغاً لم ينسه قط طوال سنى حياته ، وسردت عليه جميع أعماله وصارحته بقولها : إنه هو الذى حرض أمير المؤمنين على ارتكاب تلك الأعمال القاسية التى ذهبت ضحيتها نخبة من أعظم المؤمنين شأناً ، وأبعدهم أثراً

وإنه وإن كان نابغة الأسرة إلا أن نبوغه يمتاز بالشر فحسب ، ثم نعت عليه جبنه وأمرت وصيفاتها بطرده من حضرتها .

وكانت النساء العربيات مولعات بالشعر واستظهاره كما نبغ الكثيرات منهن فى نظم القصائد الرائعة التى تمتاز بصدق الشعور ، وجزالة النسج ، وعفة المقال .

الصالحة رابعة العدوية

كذلك كانت « أم الخير » بنت إسماعيل العدوية البصرية مولاة آل عتيك الصالحة المشهورة من شهيرات عصرها ، وأخبارها فى الصلاح والعبادة معروفة ؛ وقد توفيت عام ١٣٥ هـ ودفنت بظاهر القدس .

الملابس

لم تتطور ملابس الرجال فى ذلك العصر تطوراً يذكر ، وإن كانت تختلف من حيث الجودة والتفصيل باختلاف مهنة الشخص ودرجته الاجتماعية . فكان لباس العالم الدينى أو الكاتب مثلا يختلف اختلافاً بيناً عن بزة الجندى . وكانت ثمة ملابس خاصة لركوب الخيل ، وهى عبارة عن سروال وسترة يستعاض بهما عن الملابس الفضفاضة العادية .

ومن السهولة بمكان أن يتخيل المرء تلك المناظر الخلابة والصور الفاتنة التى كانت تزخر بها شوارع دمشق عند ما كانت مقراً للخلافة ومركزاً للجيش وسوقاً للتجارة .

ولو قدر لنا أن نعيش فى ذلك العصر وجسنا خلال شوارع العاصمة لرأينا أعيان الأمة ورجال الدولة متشحين بحللهم الغالية وقد امتطوا الجياد المطهمة يحف بهم الخدم والعبيد ، وهم مسرعون إلى بلاط الخليفة ، ولشاهدنا شيوخ البدو بملابسهم الجذابة ، والأعراب الذين لوحت وجوههم أشعة الشمس اللافحة ، متشحين بعباءاتهم الفضفاضة وعلى رؤوسهم العقال والكوفية المخططة ذات اللون الأحمر أو الأصفر ، يحدقون بأبصارهم مسبوهين من روعة المدينة وضوضائها ، ولأبصرنا جموع القرويين الشاميين فى أثوابهم ذات اللون القرمزى وسراويلهم

الواسعة ونعالهم الحمراء المدببة ، وعماماتهم ذات اللون الأبيض أو الأزرق ، وهم يسوقون عدداً من البغال والحمير والجمال مثقلة بمحصولات القرى ؛ كذلك كنا نلاقى الهاشميين ذوى الملامح الجذابة الأرستقراطية متشحين بقفاطينهم الطويلة يسيرون بخطا متزنة وهم يرمقون هـذه الأبهة والفخامة بقلوب مفعمة بالأنفة والحسد ، ولرأينا النساء يسرن بخطا وئيدة إلى الأسواق وهن مرتديات أغلى الحلل وأفخر الثياب .

وعلى الجملة كانت تلك المناظر تؤلف فى مجموعها صورة حية جذابة تدخل على القلوب منتهى درجات الغبطة والسرور !

الطعام

وفى تلك الأثناء بدأ يتردد ذكر الملاعق والمناديل التى كانوا يضعونها أثناء الطعام على صدورهم ، أو يدسون طرفها فى القفطان كما هى العادة فى معظم أنحاء القارة الأوربية ؛ وكانت الملاعق على نوعين : خشبية ذات الأيدى الطويلة ، وخزفية وكانت تستورد من الصين .

وكان العرب فى الصباح الباكر يتعللون بالصبوح ، وهو طعام مؤلف من العسل والحليب ، أو من الحليب والسكر وحده ؛ أما الفطور فكان أفراد الأسرة يتناولونه عند شروق الشمس فى إحدى الغرف الداخلية ، وإذا ما انتصف النهار اجتمع أفراد الأسرة ثانية فى غرفة الاستقبال لتناول الغداء ؛ وقد جرت العادة أن تدعى الأضياف وتولم المآدب فى مثل ذلك الوقت من النهار ؛ أما العشاء فكانوا يتناولونه بعد صلاة العصر على مائدة كانت تغطى بالقماش الأبيض وتصف عليها أكواب اللبن أو الماء ، ثم يقدم إليهم صحاف الشواء وأطباق الخضر والفاكهة ، فإذا ما أصابوا كفايتهم انتقلوا إلى غرفة أخرى لأداء فريضة الصلاة وتزجية المساء بأطيب الأحاديث وأشهر السمر . ومما يلاحظ أن القوم فى تلك الأثناء أفرطوا كثيراً فى منع اختلاط الجنسين نظراً لازدياد التأثير البيزنطى والفارسى على الحياة الاجتماعية .

الرقيق

ومن الصعب أن نطلق كلمة رقيق على من يجوز تسميتهم كذلك فى العالم الإسلامى ، إذ أن النبى (ص) نهى عن استعباد الناس والمتاجرة بهم ، كما منع إقصاء الأطفال عن والديهم ، وأمر بإطعامهم وكسائهم ومعاملتهم بالحسنى ، وأجاز افتداءهم وتحرير رقابهم بكل ما وسعوا ؛ ولكن الأرقاء بالرغم من كل هذه الرعاية أثروا تأثيراً سيئاً على الحياة الاجتماعية الإسلامية ، إذ ساعدوا على انحطاط مستوى الحياة الفكرية والأخلاقية . كذلك بدأت تظهر فى ذلك الحين ظاهرة سيئة أخرى ، وهى أن العرب المستوطنين فى البلاد الأجنبية راحوا يتزوجون من الشعوب المغلوبة ، ولا يخفى ما كان لهذا التزاوج من التأثير على مستقبل الشعب ، إذ أن المرأة التى تنتمى إلى الجنس الراقى كالقوط والفرنج والفرس مثلا كانت تنجب نسلا راقياً ، فى حين كانت المرأة التى تنتسب إلى شعب منحط كالأثوبى تأتى بنسل منحط مثلها .

الآداب

أما الأدب فى العصر الأموى فلم ينل من التشجيع ما نالته الموسيقى والفنون والشعر ؛ ومع أن القضاة والعلماء لاقوا فى عهد « عمر الثانى » التشجيع والتقدير الكافيين ، إلا أن الخلفاء الأمويين لم يشتهر أحد منهم فى العلم أو الأدب غير خالد[1] بن يزيد الأول .

٦٦١ — ٧٥٠
الفرق المذهبية والفلسفية

كذلك لم يظهر مذهب معين فى عهد الدولة الأموية كما ظهر فى العصر العباسى ، ولم تكن قد تألفت بعد هيئة من العلماء الذين يتمكنون — فى سبيل مصالحهم الشخصية — من إجبار أولى الأمر على الامتثال لفتواهم ؛ أما الانقسام فلم يكن يعدو الآراء السياسية المتسمة بنزعة الأسرة الحاكمة ، كذلك لم يكن مدار الخلاف بين الفرق والتشيع سوى الإمامة أو الزعامة الروحية فى الإسلام ، إذ كان الأموى يدعى بأن الإمامة مقتصرة على أسرته ، بينما متشيعو آل البيت

---

(١) كان عالماً فى الطب والكيمياء وله عدة تآليف فى هذه العلوم . وقد توفى عام ٨٥ هـ (٧٠٤ م) .

يرونها حقا من حقوقهم ، فى حين كان العباسيون يدعون بوجوب حصرها فيهم والخوارج يذهبون إلى أنها اختيار من الأمة دون مراعاة للنسب . وقد كان الأمويون يتمسكون بمبدأ أساسى ، لا يحيدون عنه قيد أنملة وهو بغض علىّ وأولاده . ولم تتخذ الآراء الدينية اتجاهاً فلسفيا إلا فى العهد الفاطمى . ولا مشاحة أن انتشار العلم فى ذلك الحين قد ساعد على فك الفكر من عقاله ، فأصبحت المناقشات الفلسفية عامة فى كل حاضرة من حواضر العالم الإسلامى ، ولا يفوتنا أن نشير إلى أن الذى تزعم تلك الحركة هو حفيد « على بن أبى طالب » المسمى بالإمام « جعفر » والملقب « بالصادق » ، وهو رجل رحب أفق التفكير ، بعيد أغوار العقل ، ملم كل الإلمام بعلوم عصره ، ويعتبر فى الواقع أول من أسس المدارس الفلسفية المشهورة فى الإسلام ، ولم يكن يحضر حلقته العلمية أولئك الذين أصبحوا فيما بعد مؤسسى[١] المذاهب الفقهية فحسب ، بل كان يحضرها أيضاً طلاب الفلسفة والمتفلسفون من الأنحاء القاصية ، ويعد الإمام « حسن البصرى »[٢] مؤسس المدرسة الفلسفية فى مدينة البصرة ، وواصل بن عطاء[٣] واضع مذهب المعتزلة من تلاميذه الذين نهلوا من معين مدرسته الفياض ؛ وقد عرف واصل والإمام العلوى بأنهما يعتقدان بحرية إرادة الإنسان ، كذلك كان يزيد الثالث وأخوه إبراهيم ومروان الثانى من المعتزلة . ويلاحظ أن ثلاثة من علماء دمشق : معبد الجهنى ، وغيلان الدمشقى ، وأبو يونس الأسوارى ، ذهبوا أبعد مما ذهب إليه واصل فى تأييد حرية إرادة[٤] الإنسان المطلقة . أما جهم بن صفوان فكان يقول بالقدر[٥] .

---

(١) كأبى حنيفة والإمام مالك .

(٢) توفى فى رجب سنة ١١٠ هـ (تشرين الأول سنة ٧٢٨) .

(٣) ولد سنة ٨٠ هـ (٦٩٩ — ٧٠٠م) وتوفى سنة ١٣١ هـ (٧٤٨ — ٧٤٩م) .

(٤) سنوفى هذا الموضوع حقه عند الكلام على المأمون .

(٥) يقول المقريزى فى الجزء الرابع من خططه : « إن أول من قال بالقدر فى الإسلام هو (معبد بن خالد الجهنى) » . (المعرب)